القسم الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول

سُرُجُ الدُّنيا ومصابيحُ الآخرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الباشا والشَّيْخ

ذكر لي من أثق به قال :

لمَّا قدم جواد باشا قائداً للفيلق الخامس هُرِع الناس زرافاتٍ ووحداناً في دمشق إلى دار الحكومة ليسلِّموا على الصدر الأعظم المشير جواد باشا الذي كان يستقبلهم بكثير من الزينة والأُبَّهة ، وكان أول من بادر للذهاب إلى دار الحكومة[1] وجهاءُ البلد وعلماؤها ورجالها . وكان إلى جانب الباشا عالم من علماء دمشق يقال له (الشيخ أبو النصر) حوى إلى العلم نُكَتاً جميلة وقصصاً لطيفة ومعاشرة رفيعة وظُرفاً ولطفاً امتاز بهما عن علماء عصره مما جعله نديم الباشا وسميره الذي لا ينقطع إلى سواه ولا يألف إلا حديثه ونوادره وسهراته الأدبية الممتعة .

والتفت الباشا إلى الشيخ أبي النصر قائلاً :

ـ هل بقي يا شيخ أبا النصر هنالك في دمشق عالم لم يزرني بعد ؟

فقال له الشيخ أبو النصر :

يا مولانا : إنه ما بقي في دمشق عالم ولا وجيه ولا عظيم لم يتشرف بزيارتكم إلا عالماً واحداً لم يأت ولم أره بين الزائرين ، فقال الباشا متعجباً :

ومن هو ذلك العالم وما اسمه ؟ ولماذا لم يفد مع الوافدين ويستقبلني مع المستقبلين ؟ ألم يَرَ وجوه الناس قد هُرعوا إلينا فلماذا لم يجعلْ نفسه معهم ؟!

---

(١) كانت تسمى آنئذ بـ (السرايا) .

فقال الشيخ أبو النصر :

يا مولانا إن هذا الشيخ من طراز نادر فهو لا يأتي أميراً ولا وزيراً ، ولا يستقبل أحداً ولا يودِّع إنساناً ، ولا يَحْفَلْ بمخلوق أبداً ، ولا يخرج من غرفته إلا للمسجد بقصد الصلاة ، فقال الباشا :

وماذا يصنع في غرفته تلك ؟

فقال الشيخ أبو النصر :

هو يا مولانا الباشا يُدرِّس الطلاب ، ويفقه الناس ويعلمهم أمر دينهم ، ويُقرىء في غرفته تلك الفقه الحنفي وعلوم الشريعة بأنواعها .

فقال الباشا مغضباً :

أضاق وقته عن زيارتي وأنا نائب أمير المؤمنين ووزيره ؟ أما سمع بمقدَمي هذا لبلاد الشام ؟

فقال الشيخ أبو النصر :

أطال الله بقاء مولانا الشيخ ، إن الشيخ المذكور لا يزور أحداً ولم يُعهد عنه شيء من ذلك ، بل من أراد زيارته زاره في غرفته ضمن المسجد .

فقال الباشا :

فهل لك في زيارته يا أبا النصر وأنا معك ، لعلنا ننتفع بكلامه وحاله إذا كان كما ذكرت ؟

فالتفت الشيخ أبو النصر قائلاً :

إذا أراد الباشا ذلك فأنا طوع إشارته .

وذهب الباشا في مركبته الملكية يخترق شوارع دمشق يصحبه الشيخ أبو النصر هذا من دار الحكومة إلى أن وصلا إلى دار الحديث فترجلا ودخلا المسجد ، ثم صعدا إلى غرفة الشيخ ودخل الباشا ودخل وراءة الشيخ أبو النصر ، وإذا بالشيخ عبد الحكيم رضي الله عنه جالس بهيبته ووقاره في صدر

الغرفة على جلد شاة وأمامه مِنصَّة الدرس عليها كتاب في الفقه الحنفي ، وعلى حصير رثٍّ أمام الشيخ جلس الطلبة على رُكَبهم وأمامهم كتبهم ، وهم يصغون إلى تقرير الشيخ للدرس بكل اهتمام ، ويُعلِّقون ذلك على هوامش تلك الكتب التي بأيديهم .

وأجال الشيخ أبو النصر عينيه في غرفة الشيخ فلم ير فيها شيئاً يجلس عليه الباشا إلا الجلد الذي يقعد عليه الشيخ وذلك الحصير الذي يجلس عليه الطلاب ، وهناك في ناحية من الغرفة خيط صوف علق عليه مُدَوَّرة كان الشيخ يجلس عليها ، فإذا ترطَّبَتْ نشرها على الحبل ، وجلس على الجلد .

جذب الشيخ أبو النصر طرف الحصير وأجلس عليه الباشا الذي كاد ينفجر غيظاً من الشيخ واستقباله البارد هذا ، فسكت على مضض ، وأتم الشيخ درسه الفقهي وأجاب عن الأسئلة العلمية المطروحة ، ودعا للطلاب بالبركة والفتوح فقاموا يودِّعون الشيخ ويطلبون منه تزويدهم بصالح الدعاء .

كلُّ هذا يدور أمام عيني الباشا الذي كان ينظر بعين السلطنة والمُلْك إلى ما يدور حوله ، وندم في سره على هذه الزيارة التي ما كان ينتظر نتائجها هذه ، فلا احترام ولا تبجيل ولا تعظيم ولا استقبال ، بل حصيرٌ رثٌّ بالٍ . . .

وحين فرغت الغرفة من الطلبة التفت الشيخ عبد الحكيم إلى الشيخ أبا النصر قائلاً :

ـ يابا ؛ أنت نعرفك ؛ الشيخ أبو النصر ، ولكن من هذا الذي معك ؟

وكأن شارات الباشا ونياشينه ولباسه الرسمي وقبعته الحربية التي يتعرف بها لدى الناس لم يَزِدْه ذلك كله عند الشيخ إلا جهالةً ، وأحب الشيخ أن يُصَغِّرَ الباشا في نفسه ليتسنَّى له أن ينصحه ، فإنَّ الباشا مادام ينظر في عِطْفيه ويُديم الالتفات إلى رُتبه العسكرية اللماعة ونياشينه الذهبية فإن الشيخ لن يصل إلى قلبه أبداً ، وما كلمات الشيخ إلا جزء من أنوار الحقيقة ، وقبس من شمسها الساطعة ، ونفحات من عوالم النور ، وهذه الأنوار والنفحات إذا جاءت إلى

قلب غافل لاهٍ بزخرف الدنيا وسفاسفها رجعت من حيث جاءت ولم تدخل حتى يلين القلب لها ويترك ما سواها ، ومن هنا انطلق الشيخ رحمه الله إلى تهذيب الباشا وتعريفه بنفسه أوَّلاً ، حتى إذا ما استطاع أن يريه نفسه أصغر مما يراها صَبَّ عليه حينئذٍ في هذا القلب المتعطِّش للحكمة درره وحِكمه ومواعظه فانصقلت النفس وسمت الروح في عوالم الملكوت . . .

هنالك قال الباشا : أنا جندي من جنود أمير المؤمنين أدام الله مُلْكه . . . فالتفت الشيخ أبو النصر يكلم الشيخ الذي تجاهل الباشا واستمر في هذا التجاهل المعيب . . . ! قائلاً :

ـ كلُّنا يا مولانا الشيخ جنود أمير المؤمنين أعز الله مجده ، ولكن هذا الذي أمامكم هو الصَّدْر الأعظم جواد باشا . . .

وظن الضَّيفان أن الشيخ سيهتز فرحاً بهذه الزيارة السعيدة لاسيما حين يعلم أن هذا الذي يكلمه هو الصدر الأعظم رئيس وزراء الدولة العثمانية ومدير شؤونها ، وكبير ضباطها .

ولكن الشيخ التفت إلى الباشا واستحضر عظمة الله سبحانه فصَغُر الباشا في عينه وصغر وصَغُر . . . حتى أصبح أقل من الوهم . وأصغر من الذَّرِّ . وهكذا تكون النفوس الربانية العظيمة حين ترى أبناء الدنيا لا تقيم لهم وزناً ، بل تعلو عليهم وعلى دنياهم الفانية ، ولا تزال تعلو حتى تريهم ما فرَّطوا من قبل . . . وسِرُّ ذلك هو أنهم جعلوا الدنيا التي هي سر ارتفاع هؤلاء الكُبَراء تحت أقدامهم فهانت عليهم وهانوا ؛ فإذا نطَقَ هؤلاء الربانيون بكلمة الحق نفذت كالصاعقة تُحرق كلَّ ما أمامها من غُثاء وزبَد .

قال الراوي : وصرخ الشيخ في وجه الباشا قائلاً :

ـ يا جواد . . . اتق الله . . . اتق الله .

ـ يا جواد . . . إني أحذِّرك بين يدي عذاب شديد

ـ يا جواد . . . اتق دعوة المظلوم فإنها تخرق السَّبْعَ الحُجُبَ

ـ يا جواد. . . اعلم أنَّ كل واحد في هذه الأمة مسؤول عن نفسه خويْصيَةً ، وأنت مسؤول عنهم جميعاً ، فما موقفك غداً بين يدي الله . . ؟!

ـ يا جواد. . . ماذا تقول لرب العالمين إذا قال لك يوم القيامة : جعلتُ عبادي أمانة عندك فضيعتَ العباد وخرَّبْتَ البلاد ؟

ـ يا جواد. . . هل أعددتَ جواباً بين يدي أحكم الحاكمين عما قَصَّرت في جَنْبِ الرعية التي استرعاكها الله عز وجل ؟

ـ يا جواد. . . اتق الله . . . يا جواد اتق الله . . .

* * *

خاطبه الشيخُ رحمه الله باسمه العَلَم دون لقب أو تعظيم ، مما أثَّر بنفس الباشا تأثيراً بليغاً جعله ينقلب رأساً على عقب فتذهبُ سَوْرَةُ المُلْك ، وأُبَّهةُ السلطنة ، ويصبح الباشا بجلاله وعظمته وهيبته أمام كلمات الشيخ هذه طفلاً صغيراً يجهش بالبكاء ، ويَنُوح نُواح الثَّكلى فَقَدَتْ أعزَّ بنيها ، فتنهمر دموعه فوق خديه المحمرَّين بحمرة الخجل ، وترجف أوصاله ، وتُرعد فرائصه ، حتى كأنه ينظر إلى الله فَرَقاً ، فيستغفر الله تعالى ، ويلتفت للشيخ يطلب منه الدعاء له أن يغفر الله تعالى له ما قدَّم ، ويعاهد الله تعالى على الاستقامة في السلوك ، وعلى العمل بما يرضي الله عز وجل ، ويحس بثورة الندم ، وتعذيب الضمير ، وثقل المسؤولية ، وتكشَّفُ أمام عينيه جهنمُ التي أُعدت للطواغيت الذين يظلمون عباد الله ، فيطلب من الله المغفرة ، ويجدد التوبة ، ويصحح العزم على العمل الصالح . . .

وخرج الشيخ تاركاً الباشا وأبا النصر على أحرَّ من الجمر ، ثم خرجا بعد لحظات ، خرجا بروح جديدة غير الروح التي دخلا بها ، خرجا وقد زال من نفسيهما تعظيم الدنيا ، وأُبَّهة المُلْك وسَوْرة الجاه ، وأُبدلا بذلك كله محبة الله ، والخشية من عذابه ، والبكاء عند ذكر آياته . . .

* * *

وفي اليوم التالي لزيارة الشيخ صدر بلاغٌ من الصدر الأعظم المشير لجميع الجنود والعساكر والضباط والموظفين وكلِّ من له علاقة بالدولة أن يجتمعوا كلهم في دار الحكومة بعد أذان الظهر لأمر هام. . .

فهُرع الناس إلى دار الحكومة يستوضحون جَليَّةَ الأمر ، واجتمع الجند والعساكر والضباط والموظفون ينتظرون قدوم الباشا وهم على أُهبة الاستعداد يعلوهم وجوم عام ، ورعب شديد وخوف عظيم من نزوةٍ من نزوات الباشا لا يعلم عاقبتها إلا الله. . .

وقطع الصَّمت الرهيب دخول الباشا الأعظم ومعه بعض المرافقين ، ووقف الباشا في وسط الحلقة وقد انهمرت دموعُه على لحيته وصدره ، وهو ينشج بالبكاء الشديد مما أذهل الحاضرين وجعلهم يشاركونه البكاء دون أن يعلموا لذلك سبباً سوى أن الباشا يبكي فهم يبكون على بكائه ، وقد توهَّمَ بعضُهم أن الباشا قد أصيب بمصيبة كفقد قريب أو ولد أو نحو ذلك. . .

ولكن الباشا لم يتركهم في هواجس الوهم ، فقال بصوت متهدِّج :

(سامحوا جواد. . . سامحوا جواد. . . إن جواداً مسؤول عنكم جميعاً ، فإن لم تسامحوه فسيكون عذابه أكبر منكم جميعاً. . . فرجائي منكم أن تسامحوني ، وإذا كان لأحد منكم مَظْلَمَةٌ أو حق من الحقوق فليعلن عنه فسأرده إليه بمعونة الله عز وجل. . .) .

ورجع إلى بكائه. . .

ثم إنه أخذ يدور على الضباط والجنود فرداً فرداً ، ويسألهم عن أحوالهم ومظالمهم ثم أعطى كلَّ ضابطٍ من الضباط ليرة عثمانية ذهبية ، وأعطى كلَّ جندي مجيدياً أو اثنين حسب ما يراه من المصلحة ، ثم ودَّع الجميع وذهب والبكاء يقطع نياط قلبه. . .

ولا شك أن الباشا مرَّت عليه لحظات بعد ذلك فكَّر فيها بما فعل ؛

فحمد الله تعالى على ما وفَّقه من رد المظالم وإحقاق الحقوق وإنصاف الرعية ، ولكن من هو سبب ذلك كله ؟! من هو السبب ؟

إنه الشيخ ؛ الشيخ الذي أوقد هذه الشعلة الإيمانية في القلب فالفضل يعود بعد الله عز وجل ورسوله ﷺ إليه جزاه الله عنا خير ما جزى عالِماً عن قومه . . .

ولكن ألا يستحقُّ هذا الشيخ مكافأةً على إخلاصه ؟ لاسيما وهو فقير الحال قليل ذات اليد ؟ . .

وفكَّر الباشا طويلاً في هذا الأمر ، ثم استدعى الشيخ أبا النصر نديمه وسميره قائلاً :

(يا أبا النصر ، خذ هذا الكيس وفيه أربعمائة ليرة عثمانية ذهباً . وأعطه شيخنا في دار الحديث الذي كان له الفضل في هدايتنا وإرشادنا جزاه الله عنا كل خير وأجزل مثوبته ، ولا تنس أن تقول له : إنَّ ولدكم جواداً يُسلِّم عليكم ويُقبِّل يديكم ويهديكم هذه الهدية المتواضعة ـ والله العظيم ـ من ماله الخاص ، لا من مال الدولة ، بل غلَّةُ أرضٍ ورثها عن أبيه . « والنبيُّ ﷺ كان يقبل الهدية » ولا تنس أن تتلطَّف . . . فاذهب على بركة الله) . . .

وتلكَّأ الشيخ أبو النصر بادىء الأمر لما يعرفه من عفة الشيخ وزهده ، لكنه أطاع الباشا لما رأى من إلحافه ، وذهب إلى الشيخ عبد الحكيم في دار الحديث وتلطَّف معه في المقدِّمات والتحيات حتى سأله قائلاً :

ـ ما قول مولانا في الهدية ؟ وهل قَبِلَ النَّبي ﷺ الهديةَ أم لا ؟ . . فأجاب الشيخ بالجواب العلمي الذي يُجيب به كلُّ عالِم حين يُسأل عن مثل هذا السؤال :

(نعم ؛ قَبِلَ النَّبي ﷺ الهديةَ وأثاب عليها ، وقبولُ الهدية جائز إن لم تكن رِشوة ، أو صَدَقَةً في صورة هدية لرجل غني غير محتاج) .

فمَدَّ الشيخ أبو النصر يدَه إلى الكيس وقال :

ـ (يا مولانا هذا مالٌ أهداكم إياه ولدُكم جواد ، ويُقْسم بالله أنه من ماله

الخاص لا من مال الدولة ، بل هو غلّةُ أرض ورثها عن والده ، ويرجوكم قبولها على تواضعها ، وأن تضعوها حيث تُريدون) . . .

فالتفت الشيخ إلى أبي النصر غاضباً ورفض الهدية ، فألح أبو النصر فرفض الشيخ ، فألح ثالثة ، فقال الشيخ مشيراً إلى مال على الرف قد خبأه[1] من كَسْب يده :

ـ قُلْ للباشا : أنا غني لا تصلح لي الصدقة ، وإن هديتك صدقة في صورة هدية ، وهذا المال عندي يبلغ أكثر من النصاب ، فإن شئت فضَعْ هذا المال عند من هو أحوج مني إليه ، ونحن لا نأخذ ثمنَ الإرشاد مالاً . . .)[2] .

---

(١) هكذا يكون العلماء في ترفعهم عن الأمراء والحكام وأرباب السلطان حين يكتسبون بأيديهم وتلك هي حقيقة العظمة اهـ .

(٢) هذه القصة سمعتها من المرحوم الحاج صادق الأسطواني الدمشقي في داره قبيل وفاته بقليل رحمه الله تعالى ، وكان هو لهذه القصة شاهد عيان عاصر أحداثها ، وقد حافظت على مادتها قدر المستطاع إلا ما اضطرتني إليه حاجة السبك ، أما جواد باشا فكان صدراً أعظم ومشيراً وقائداً للفيلق الخامس في الجيش العثماني آنذاك ، هذا ولقد ذكر كل من الأستاذين محمد سعيد الطنطاوي وعبد الوهاب سكر القصة على غير هذا النسق وبالشكل التالي : (أن الصدر الأعظم المشير جواد باشا كان بالشام قائد الفيلق الخامس زار ـ الشيخ ـ فوجده جالساً على باب غرفته للاستراحة ، ولما وقع نظره على المشير لم يهتم به ولم يقم له ، ولم يكلمه سوى رد السلام ، فجاء المشير وجلس إلى جانبه برهة ثم قام وانصرف والشيخ على حاله ، وبعد انصراف المشير حانت للشيخ التفاتة فرأى صرة بجانبه فقام حافياً مسرعاً ونادى أصحاب الباشا وألقى الصرة إليهم وقال : أخبروا الباشا أني غير محتاج ، ورجع ودخل غرفته) اهـ أعلام الإسلام ص : ٧٥ وكتاب الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي عبد الحكيم الأفغاني ص : ١٠ ، قلت : ولعلهما حادثتان والله أعلم . قلت : والشيخ في هذه المقولة هو علامة الزمان الشيخ عبد الحكيم الأفغاني الحنفي الدمشقي رحمه الله .

ـ موقفه مع بعض الولاة :

قال والي دمشق آنذاك مرة للسيد أديب القباني ـ وكان من تلاميذه ـ أحب زيارة رجل من أهل العلم والصلاح ، فأخذه في عربة إلى الشيخ عبد الحكيم فلما وصلا قال له السيد أديب :

ـ هذا الوالي قد جاء يزورك . . .

فلم يقم له ، وإنما هش له قليلاً وقال : أهلاً وسهلاً . . .

وسأله الوالي الدعاء ، فدعا له بضع دقائق ، ثم أقبل على قراءته ومطالعته ، فوضع الوالي عشر ليرات على (الرحلاية) ثم قام ، ومضيا ، وبَصُر الشيخ بالليرات بعد ذهابهما ، فأخذها ولحق بهما وصاح :

ـ ما هذا يا شيخ أديب ؟

فقال الوالي : يا سيدي استعن بهذا . . .

فقال الشيخ : (ما في حاجة ، ما في حاجة)

ـ فقال : يا سيد وزِّعها .

فأمر أحد طلابه فصرفها له (مجيديات) فوزَّعَها وأخرج من جيبه (نحاسة) فاشترى بها (مَرَق مخلَّل) .

وبعد شهر جاءه الوالي مرة أخرى لزيارته ، ودعا لهم كالمرة الأولى ، ثم وضع له عشرين ليرة ذهباً ، فلحق بهم وقال : ما هذا ؟

فقال الوالي : يا سيِّدي استعن بها على العِلْم . .

فقال الشيخ : ألم أقل لك لا حاجة ؟

قال : يا سيِّدي وزِّعها . . .

فغضب وقال : شو أنا (ياور)[1] عندك ؟ وزِّعها بنفسك . . .

---

(١) ياور : رتبة عسكرية بمعنى المرافق .

الباشا وفقيه النَّفَس

قال الراوي :

والتفتَ مندوب الباشا[1] إلى الشيخ قائلاً :

ـ يا سيدي ؛ إن الباشا قد أمر جنده وأعوانه بالتهيؤ لزيارتك فمتى تريد أن تستقبله وفي أي مكان ؟

وظن الرجل أنه قد أخذ كلامه من الشيخ كلَّ مأخذ ، وأن الشيخ سوف يطير فرحاً بهذا النبأ ، وهل يحظى كلُّ إنسان بهذا الشرف من زيارة إبراهيم باشا ولي عهد مصر وأمير بلاد الشام وقاهر الدولة العثمانية ؟ والملك غير المتوَّج . . . ؟!

وسكت الشيخ هنيهةً ثم رفع رأسه كأنه كان في عالم غير عالمنا ، فهو لا يعيش مع الناس إلا بجسده ، ولا يكلمهم إلا بلسانه ، ولا يعطيهم إلا ظاهره . . .

أما روحه وأرواح العارفين مثله فهي تحلِّق في الملأ الأعلى تطوف فيه ثم ترجع إلى صاحبها بطرائف الحكمة . . .

والتفت الشيخ إلى محدِّثه قائلاً له :

---

(١) الباشا هنا هو إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا قائد الحملة المصرية إلى بلاد الشام في أواسط القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي .

يا بُنَيَّ ، إن أوقاتنا كلها مشغولة بالدرس والتعليم فإن أراد الباشا زيارتنا فقل له أن يأتي موعد الدرس. . . ثم التفت الشيخ إلى كتاب في يده يتصفحه. . !

وخرج مندوب الباشا من غرفة الشيخ وقد رأى رجلاً من طراز فريد لا يكاد يمت إلى عصره بصلة ، رجل كان بقية السلف الصالح وأثراً من آثار الرعيل الأول. . . وأزفت ساعة زيارة الباشا لحي الميدان المجاهد في دمشق يؤم الشيخ سعيداً الحلبي فقيه الديار الشامية فازَّينت السِّكك والحوانيت ، وارتدى الميدان أبهى حلله ، وأخذت الأرض زخرفها وتعالم الناس الخبر فاجتمع منهم خلق كثير حتى كادت تغَصُّ بهم الطرقات والمنافذ. . . وكاد يكون الحشر. . . ووصل الموكب الملكي وترجَّل الباشا ومن معه ، ودخلوا بيت الشيخ وكان الشيخ في الإيوان يقرىء تلاميذه كتب المذهب الحنفي ، وكانت برجله آفة تمنعه من طيِّها فكان يمدها في الحلقة أمام إخوانه وكلهم يعلمون منه ذلك الأمر. . .

ووقف الباشا على الحلقة وظن أن الشيخ سوف يقدم إليه هاشًّا باشًّا أو على أقلّ الاحتمالات سيطوي رجله احتراماً للزائر الكبير. . . ! لكن الشيخ لم يلتفت ولم يقطع الدرس ولا طوى رجله بل اكتفى بقوله موجِّهاً كلامه للباشا البادىء بالسلام :

[وعليكم السلام ورحمة الله ، أهلاً ، اجلس يابا] .

وجلس الباشا على حصير بسيط أمام الشيخ يستمع الدرس ثم قام مودِّعاً ، ولم يتحرك الشيخ من مكانه ولا تزحزح من محله وخرج الباشا بمثل ما استقبل به. . .

قال الراوي :

وبعث الباشا إلى الشيخ بصرَّة فيها ألف ليرة ذهبية ورجا حامل الأمانة الشيخ في قبولها ولما كرر الرجاء والإلحاح التفت الشيخ إلى مندوب الباشا قائلاً بلهجة شديدة صارمة :

[يا بُنَيَّ ، سلِّم على الباشا وقل له : يقول لك الشيخ سعيد إن الذي يمد رجله لا يمد يده] .

قال الراوي : وكان جواب الباشا حين سمع تلك المقالة :

[والله لو أخذها لقطعتُ الذي فيه عيناه ، يمد لنا رجله ثم يمد لنا يده] ؟!

* * *

وكان من خبر الشيخ سعيد الحلبي رحمه الله مع إبراهيم باشا ، أن الباشا زار وجهاء حي الميدان في بعض شأنه ، ودخل الشيخ سعيد ومعه تلميذه العلاّمة السيد الشيخ محمد أمين عابدين صاحب الحاشية الشهيرة ، فقام القوم والباشا وجلس الشيخ فجلسوا إلا الشيخ محمد أمين عابدين صاحب الحاشية رحمه الله تعالى ظل واقفاً متأدباً ، فقال الباشا للشيخ : قل لهذا الغلام أن يجلس . . .

فقال الشيخ منتهراً غاضباً : هذا لا يخصك . . .

ثم أردف كلامه بقوله :

قال فقهاؤنا رضي الله عنهم : [الضرر يزال] ، ثم قام من مجلسه وقام القوم ، وانفضَّ المجلس . قال الراوي : فما مضت على تلك الكلمة أربع وعشرون ساعة حتى كان إبراهيم باشا خارجاً من الشام إلى مصر إلى غير رجعة . . .

قال : فكان أهل دمشق يعدُّونها من كرامات الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأجزل مثوبته . . .

* * *

في الطواف

في تاريخ الإسلام رجال فوق العظمة وأعلى من المجد وأعزُّ من السؤدد ، رجال غيَّروا مجرى التاريخ العالمي واستطاعوا أن يؤسسوا ملكاً واسع الأرجاء قويَّ البناء عزيز الجانب ، ومن هؤلاء الرجال العظماء رجل استطاع بذكائه وعبقريته أن يقيم دولة تمتد من الصين شرقاً إلى المغرب الأقصى غرباً ، دولةً قال عنها حفيده الرشيد الخليفة المظلوم : (أيها السحابة أمطري أين شئت فسيأتيني خراجك) .

هذا الخليفة العظيم والمَلِك المرهوب المهيب والرجل الذي ملأ الدنيا خيلاً ورجالاً ومصَّر الأمصار وفتح البلاد ، ودوَّخ الأعداء يستمع إلى نصيحة رجل مسلم من عامة الناس عليه سيماء الصلاح والتقوى ، فيتدبرها بكل خشوع ويفهمها بقلبه لا بأذنه ، ويجلس بين يدي الرجل الناصح له كما يجلس التلميذ الصغير أمام شيخه الكبير .

حجَّ هذا الخليفة إلى بيت الله الحرام ، فكان يطوف آخر الليل ويصلي ولا يعلم به أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار النَّدوة فيجيء المؤذِّنون ويسلِّمون عليه ويؤذِّنون للفجر ويقيمون الصلاة فيخرج فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة في السَّحَر وشرع يطوف ، إذ سمع رجلاً عند الملتزم يقول :

[إلهي أشكو إليك ظهور الفساد ، والبغي في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم] . . .

فأسرع الخليفة مشيته حتى ملأ سامعيه من كلامه ، ثم خرج من الطواف إلى

ناحية المسجد ، ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه ، فصلى ركعتين وقبّل الحجر وأقبل مع الرسول وسلّم على الخليفة ، فقال له :

(ما هذا الذي سمعتك تقوله ، من ظهور الفساد والبغي في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني وشغل خاطري) . .

فقال : يا أمير المؤمنين . . . إن آمنتَني على نفسي وأصغَيْتَ إليَّ بأذن واعية أنبأتك بالأمور بأصلها ، وإلا احتجبت بقُدْرَة الله تعالى فلا تصلُ إليَّ ، واقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل عن غيري .

فقال : أنت آمن على نفسك فقل ، فإني أُلقي إليك السمع وأنا شهيد بالقلب .

فقال : إن الذي داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغي في الأرض هو أنت . . .

فقال : أيها الرجل ، كيف يداخلني الطمع ؟ والصَّفراء والبيضاء بيدي ، والحلو والحامض في قبضتي ؟ ومن يحول بيني وما أريد من ذلك ؟! . .

فقال : هل داخل الطمع أحداً من الناس ما داخلك ؟!

يا أمير المؤمنين : إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأنفسهم وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينكَ وبينهم حجاباً من الحجر والطين وأبواباً من الخشب والحديد وحُجَّاباً معهم السلاح ، واتخذت وزراء فجرة ، وأعواناً ظلمة ، إذا نسيتَ لا يذكِّرونك ، وإذا أحسنت لا يعينونك ، وقوَّيتَهم على ظلم الناس بالسلاح والأموال والرجال ، وأمرتَ ألاَّ يدخلَ عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإيصال المظلوم إليك ، ومنعتَ من إدخال الملهوف عليك ، وحجبت الفقير والجائع والمحتاج عنك ، وما أحد منهم إلا وله حق في هذا المال ، فمازال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرتهم ألاَّ يحجبوا عنك يقولون في أنفسهم :

(هذا خان الله فما لنا لا نخونه ؟! . . .) فاتفقوا ألاَّ يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوه ، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعدوه ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظَّمهم الناس وهابوهم وأكرموهم وهادوهم وكان أول من داراهم عمَّالك بالأموال والهجايا والرِّشا فتقوَّوا بها على ظلم رعيَّتك ، وتبعهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيتك ليظلموا من دونَهم فامتلأت بلاد الله بالظلم والغشم ، وزاد بغيهم وطمعهم وكثر فسادهم وإفسادهم ، وصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول إليك ، وإن أراد رفع قصته إليك وصرخ بين يديك ضُرب ضرباً مبرِّحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك ، فإن سألتهم عنه قالوا : أساء الأدب فأدَّبناه أو جهل مقامك فضربناه ، فما بقاء الإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام ؟ وإني سافرت إلى أرض الصين فقدمتها وقد أصاب ملكهم آفةٌ أذهبت سمعه فجعل يبكي فقال له وزراؤه : ما لك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : إني لا أبكي على فقد سمعي ، ولكن أبكي على المظلوم يصرخ ببابي يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته ، وحيث ذهب سمعي فأين بصري ، فنادوا في الناس أن لا يلبس أحمر إلا مظلوم لأميِّزه بالنظر فأُعينُه ، وكان يركب كل يوم ليرى المظلومين ويستدنيهم ويرفع ظلمهم ، انظر يا مسكين هذا مشرك بالله غلبت رأفتُه بالمشركين على رأفتك بالمسلمين ، أنت ترى أنك مؤمن بالله وابن عم النَّبي ﷺ ، وإن الأموال لا تجمع إلا لواحد من ثلاثة أمور :

فإن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبراً في الطفل يخرج من بطن أمه عُرياناً ما له على وجه الأرض مال ، ولا مال إلا دونه يد شحيحة به تحويه وتصونه عن كل أحد ، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى يسوق إليه ما قدَّره له فيملكه ويحوي به كما حواه غيره ، ولست الذي يعطي ، بل الله يعطي من يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وإن قلت أجمع المال ليشتد سلطاني فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدُّوا من السلاح والكُراع ، وما ضرك ما كنت فيه أنت

وولد أبيك من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد .

وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أعلى مما أنت فيه ، فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تُدرَك إلا بالعمل الصالح .

واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيتك إذا عصاك بأعظم من القتل ، وإن الله يعاقب بالخلود في العذاب الأليم .

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [المؤمن : ١٩] .

فكيف يكون وقوفك غداً بين يدي الله وقد نزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ، فهل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً ؟ . . .

قال : فبكى الخليفة بكاء شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال :

ـ كيف إحساني فيما خوَّلتُ ؟ ولم أر من الناس إلا خائناً ؟

قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام الرَّاشدين .

قال : ومن هم ؟

قال : العلماء العاملون .

قال : فإنهم فروا مني . . .

قال : نعم ؛ فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك ، فإذا فتحتَ الأبواب وسهَّلتَ الحجاب ونصرتَ المظلوم ، ومنعتَ الظالم ، وظهرتَ بالعدل ، ونشرتَ بالفضل ، فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك .

وجاء المؤذِّنون وسلَّموا عليه وأذَّنوا للفجر ، وأقاموا فقام الخليفة وصلى بالناس ، وإذا بالرجل غاب من بين أيديهم .

هذا الخليفة العظيم في نفسه العظيم في استماعه للنصيحة الثمينة هذه هو المنصور العباسي الذي كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعاً على حد تعبير

المؤرخين ، وهو الذي أسس فعلاً دولة بني العباس ، وشيَّد أركانها ، وبنى بغداد وجعلها حاضرة الدنيا وقُبَّةَ الإسلام .

وقد أحببتُ أن أسوق لك القصة بلا تعليق ، وكذلك فإني أُهديها لملوك العرب والمسلمين جميعاً ورؤسائهم بلا تعليق . . .

* * *

هذا الخليفة المنصور العظيم له وقائع أخرى مع العلماء العاملين منها : أن الأوزاعيَّ عالمَ الشام دخل عليه يوماً فقال له المنصور : عظني . . .

فقال الإمام الأوزاعي : (اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله .

يا أمير المؤمنين إن الملك لا يدوم لمخلوق ، وإنما الملك لله وحده ، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك .

يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ دعا للقصاص من نفسه في خَدْش خدشه أعرابياً وهو غير متعمِّدٍ ، فقال الأعرابي بأبي وأمي قد أحللتُكَ ، وما كنت لأفعل ذلك أبداً .

يا أميرالمؤمنين : إن خير الكرام عند الله أهل التقوى ، ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبها بمعصية الله وضعه الله وأذلَّه) ، فلما انتهى من عظته أمر له المنصور بمال فاعتذر واستعفى من قبوله ، وقال : (يا مولاي ، ما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا فأُحرم ثوابها وأُقلل من نفعها ، ومادام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل ؛ فنحن في خير الله ثم في خيره . .) .

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ : ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر : ١-٢] حتى بلغ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٤] لمن فعل مثل فعالهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ، فإن ببابك نيراناً تتأجَّج ، لا يُعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا مسؤولين عما اجترحت ،

فلا تصلح دنياهم إلا بفساد آخرتك ، أما والله لو علم عُمَّالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرَّب به إليك من لا يريده .

فقال له سلمان بن مجالد : اسكت فقد غممتَ أمير المؤمنين . . .

فقال عمرو : ويلك يا ابن مجالد! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردتَ أن تحول بينه وبين من ينصحه ؟!

اتق الله يا أمير المؤمنين . . . فإن هؤلاء قد اتخذوك سلَّماً لشهواتهم ، فأنت كالماسك بالقرون وغيرُكَ يحلب ، وإنَّ هؤلاء لن يغنوا من الله شيئاً . . .

* * *

ولما دعا المنصور الإمام الأعظم أبا حنيفة للقضاء ، قال له المنصور :

ـ لم لا تتغشانا يا أبا حنيفة ؟ . . .

ـ فقال : يا أمير المؤمنين ليس لديَّ ما أخافك عليه ، ولا لديك ما أرجوك له ، وهل يتغشاك إلا من يخشاك .

ـ فقال له المنصور : لتتولَّينَّ القضاء يا أبا حنيفة . . .

فقال : لا أصلح له يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور : بل أنت تصلح له .

فقال : لا أصلح ، والله لا أصلح ، وحلف بكسر هاء الجلالة .

فقال المهدي : كفِّر عن يمينك يا أبا حنيفة ، فقال أبو حنيفة رحمه الله : أبوك أغنى من عمك فهو أولى بالتكفير عن يمينه مني . ثم قال للمنصور :

ـ حججتك يا أمير المؤمنين ، حلفت لك أني لا أصلح ، فأنت بين اثنتين ، إما أني لا أصلح وأنا صادق فكيف تولي قاضياً لا يصلح للقضاء ، وإما أن أكون كاذباً فأنا أصلح وأزعم أني لا أصلح فكيف تولي قاضياً كذَّاباً ؟! . . . فبهت المنصور .

هكذا كانوا في عفتهم وصدعهم بالحق وعظمة نفوسهم .

رحم الله أولئك الناس ، أولئك والله هم الناس .

* * *

قال نمير المدني :

قَدِمَ علينا المنصور المدينة ومحمد بن عمر بن الطلحي في قضائه وأنا كاتبه . فاستعدى الحمالون ـ أي ادعوا لدى القاضي ـ على أمير المؤمنين في شيء ذكروه .

قال : فأمر نميراً المدني أن اكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً بالحضور معهم وإنصافهم . فقلت : تعفيني من هذا فإنه يعرف خطي!! فقال : اكتب ، فكتبت ، ثم ختمه ، فقال : لا يمضي به أحد والله غيرك!

فمضيت به إلى الربيع ، وجعلت أعتذر إليه ، فقال : لا تفعل .

فدخل عليه بالكتاب ثم خرج الربيع فقال للناس ، وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم إني دعيت إلى مجلس الحكم ، فلا أعلمن أحداً قام إليَّ إذا خرجت أو بدأني بالسلام إلا فتكت به .

ثم خرج ، والمسيب بين يديه ، والربيع ، وأنا خلفه ، في إزار ورداء ، فسلَّم على الناس ، فما قام إليه أحد ، ثم مضى حتى بدأ بالقبر فسلم على رسول الله ﷺ ، ثم التفت إلى الربيع فقال : ويحك يا ربيع أخشى إن رآني محمد بن عمر بن الطلحي أن يدخل قلبه هيبة فيتحول عن مجلسه ، فوالله لئن فعل لا يولى لي على ولاية أبداً!!

قال : فلما رآه ـ أي القاضي ـ وكان متكئاً ، أطلق رداءه على عاتقه ثم احتبى ودعا الخصوم والحمالين ودعا أمير المؤمنين ، ثم ادعوا وحكم عليه لهم فلما دخل ـ أي المنصور ـ الدار قال للربيع : اذهب ، فإذا قام وخرج من عنده الخصوم فادعه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما دعا بك حتى فرغ من أمورالناس جميعاً .

فلما دخل عليه ، فقال المنصور : (جزاك الله عن دينك ونبيِّكَ ، وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء)[1] .

* * *

(١) خلاصة الذهب المسبوك المختصر من سير الملوك ، لعبد الرحمن سنبظ الإربلي ، في بحث خلافة المنصور العباسي ص : ٦٢-٦٣ .

obeikandl.com

الامتحان الصعب

احتل الصليبيون سواحل بلاد الشام في أواخر الدولة العباسية وأقاموا فيها دِولاً كثيرة ، فقسموها وجزَّؤوها حتى أصبحت كل مدينة دولةً قائمة بذاتها . . .

ولقد أصبح حال المسلمين في ديارهم يرثي له المحب ويشمت به العدو ، فهم متفرقون فيما بينهم ، متحاربون ، يغزو بعضهم بعضاً ، ويتعاون بعضهم على الآخرين من بني قومه ودينه بأعدائهم جميعاً ، فساء الأمر ، وانهزمت النفوس ويئس الناس ، وبلغتِ القلوب الحناجر . . .

وشار الله تبارك وتعالى أن ينقذ المسلمين من هذه المصائب والنكبات ، وأن يبعث في هذه الأمة روحاً جديدة ، وإيماناً جديداً ، تستطيع أن تحرر القدس ، وتنقذ الأقصى من عبث الصليبيين وتسلطهم عليه مدة زادت على تسعين عاماً . .

ولقد يعجب المتتبع للتاريخ الإسلامي حين يرى أن هذه الأمة المسلمة امتحنت ببلايا ومصائب ونكبات ، وابتُليت باضطهاد وظلم واستثمار ، ما لو نزل على أي أمة أخرى من أمم الأرض لما بقي لها في الوجود من أثر ، وما لو نزل على الجبال الشم لجعلها دكاً دكاً ، وعلى أكبر مدينة وحضارة في الدنيا لجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكن الأُمَّة المسلمة برغم ذلك كله بقيت صامدة شامخة أمام هذه الغزوات والحروب ، والظلم والاستعباد ، فلا ترفع رأسها من محنة حتى تُبتلى بأخرى ، وهي في ذلك كله كالصخرة الشمَّاء ينكسر أمامها أعظم الأمواج وأضخمها ، فتتغطى حيناً من الزمن بهذا المد ، ثم لا تلبث أن ينحسر عنها ، وترجع كما كانت عاليةً مرتفعةً شامخةً . . .

وسِرُّ ذلك أن الإسلام دين لا كبقية النظم والشرائع الأُخرى ، وسرُّ عظمته وقوته وصموده هو أنه حق ، ولا حق غيره أبداً ، وهذا هو أيضاً سر خلوده وبقائه إلى يومنا هذا هادراً كالأتيّ ينشر نفسه بنفسه ويدخل الناس فيه أفواجاً ، ويدخلون ويدخلون ، ولايزالون كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والله خير الوارثين . . .

فإذا أحسن المسلمون فهم دينهم وطبقوا تعاليمه ابتغاء مرضاة الله ، وأخضعوا بهذا الدين صولة الأرض بصولة السماء ، كانوا ربانيين ، وكان حقاً على الله نصرهم على أعدائهم وتدمير كل من يقف بوجه دعوتهم بالغاً ما بلغ شأنه وعدته وعدده .

وأما إذا أساء الناس إلى دينهم بإهمال تعاليمه ، وغرتهم الدنيا ، وأقبلوا عليها يَنهلون منها ويَعُلُّون ، وتلهَّوا عن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ، سلط الله سبحانه عليهم عدواً لهم يأخذ بعض ما في أيديهم ثم يدعون فلا يستجاب لهم وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

وهكذا يظل الله تبارك وتعالى يؤدب الأمة الإسلامية دون أن يستأصلها حتى إذا أراد حفظ دينه بمن بقي منهم بعث فيهم عبداً مصلحاً ليس بنبي ولا رسول بل هو رجل صالح يدعوهم إلى الله ويوحد كلمتهم ويفهمهم حقيقة دينهم فإذا ذاقوا طعم الإيمان والعزة بالله عز وجل رفضوا حينئذٍ أن يعتزوا بغيره أو أن تذل قناتهم لإنسان مهما بلغ أمره فثاروا على أعدائهم فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يرجع المسلمون إلى عزهم ومجدهم وتعلو كلمتهم ويذلَّ ويرفع الله البلاء عنهم وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ : « إن الله ليبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »[1] .

ولقد أصاب المسلمون ما أصابهم من جرَّاء احتلال الصليبيين أراضيهم

---

(١) رواه مسلم .

وإقامة دول للكفر فيها ، حتى بعث الله فيهم العبد الصالح والولي الصادق السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته . . .

وهكذا تسلَّمَ صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد السلطنة وبلاد الإسلام مجزأة ، والمسلمون مفرَّقون وأرضهم محتلة من قبل الصليبيين ، ولاسيما بيت المقدس والساحل السوري كله ومناطق أخرى من الداخل ، فأول عمل قام به رضي الله عنه هو أن نفض الأمة الإسلامية ببصره وبصيرته فوجد سرَّ خذلانها وانهزامها وانكسار شوكتها أمران اثنان وعلتان معضلتان في هؤلاء المسلمين : الأولى هو جعل الإسلام بينهم أمراً مختصراً على الصلاة والمسجد فقط لا يتعداهما منهم ولا يقيمون حدود الله ولا يتبعون تعاليمه ، ولا يجعلون هذا الإسلام العظيم مهيمناً على حياتهم وسلوكهم وأعمالهم جميعاً ، أي أنهم لم يقيموا الحاكمية لله في الأرض . . .

وثانيهما : أنهم جميعاً رؤوس وزعماء وهو آية الخذلان والاندحار فما خسرت أمة في الأرض إلا حينما تفرقت كلمتها وحارب بعضها بعضاً ، وأصبحوا شيعاً وفرقاً لا آصرة تجمعهم ولا جامعة توحِّد أمرهم وفي ذلك بلاء وأي بلاء . . .

فبدأ بنفسه رضي الله عنه فحاول تربيتها التربية القرآنية فحفظ كتاب الله تعالى وبدأ بحفظ السنة المشرَّفة واتخذ لنفسه شيخاً مرشداً يدله على الله فيذكره إذا نسي ويعظه ويقوِّمه إذا اعوجَّ ، ثم طبَّق ذلك على الجنود فوضع بينهم العلماء والموجهين حتى استوى لديه جيش إسلامي قرآني يستطيع أن يفتح به الدنيا . . .

ثم أقبل على العلة الثانية فلايزال يسخِّر كل قواه العسكرية والسياسية حتى أخضع بإخلاصه الفريد الأمة الإسلامية لوحدة جامعة قوية لا تحركها الزعازع الهوج . . ثم أقبل رضي الله عنه بعد ذلك على الصليبيين فلازال يضرب بعضهم في بعض ويدحرهم معركة تلو أخرى حتى كانت وقعة حطين التي زينت صفحة التاريخ الإسلامي والتي تعد من الأيام الغرِّ في الدنيا . . .

ثم حاصر بيت المقدس ، بعد أن احتلها الصليبيُّون ما ينوف على تسعين عاماً ففتحها ولم يقم للصليبيين بعد ذلك لهم في بلاد الإسلام قائمة أبداً . . .

ولا والله ليس السر في فتوحات صلاح الدين ولا في انتصاراته ، فقد جاء من قبله فاتحون كثيرون وذهبوا كما أتوا ، ولكن السر هو أنه أنقذ أمة منهارة ، وأقام جداراً متهدماً يريد أن ينقضَّ ، وجدد للأمة الإسلامية أمر دينها فصارت منه على علم وعملٍ وذكرٍ ، كل ذلك كان بشيء واحد هو إخلاص هذا القائد الإسلامي لدينه وأمته وإيمانه العظيم أنه لا نصر بلا إسلام . . .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد : ٧] .

ولقد بلغ من عظمة صلاح الدين رضي الله عنه أن جيشه كان يتمنى الشهادة والموت في سبيل الله ويهواه كما يهوى المحب حبيبه ، وكانت الفروض والواجبات والسنن والحدود تقام في هذا الجيش المسلم ، ويطبق الإسلام تطبيقاً عملياً كمنهج كامل للحياة يسيطر على حياة الفرد بما يرضي الله عز وجل ، وبما يكسب المسلم سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . . .

ولذلك كان الصليبيون يفكرون في أمر الخلاص من صلاح الدين ومن جيشه العظيم هذا ؛ واجتمعوا لذلك وعقدوا له مؤتمراً حضره زعماؤهم وعلماؤهم وحكماؤهم ، واجتهدوا في حيلة حربية أو سياسية يستطيعون بها أن يحرزوا النصر على صلاح الدين وجيشه ، فوجدوا أنهم لا حيلة لهم في المعارك الحربية ولا السياسية ؛ فصلاح الدين في ذلك قائد وزعيم لا يشق له غبار ، ثم فكروا وقدروا فوجدوا خير ما يعينهم على أمرهم هو أن يضربوا جيش صلاح الدين لا بجيش من العساكر والجنود . . بل بجيش من الغادات والحسناوات الفاتنات سلاحهن العيون الدعجاوات والثغور والنحور ، والصدور والخصور ، وهل هنالك أفتن في الشباب والجنود من سلاح المرأة والخمرة . . .

ووقع إجماعهم على هذه الخطة الشيطانية ، فبعثوا أعوانهم يجمعون لهم

المومسات الحسناوات الجميلات ، فهيؤوا منهن عدداً كبيراً وزيَّنوهنَّ وعطروهنَّ حتى صارت كل واحدة منهن كأنما هُيِّئت لتُزفَّ إلى عرسها ، وأعطوا كل واحدة منهن أُضمومة من الزهر والأوراد ، وقالوا لهن :

إن التي تستطيع أن تغوي شاباً مسلماً من جيش صلاح الدين فيزني بها فلها ألف دينار ، ومن استطاعت أن تجعله يعانقها فلها مائة دينار ، ومن ظفرت منه بقبلة فلها خمسون دينار ، وما إلى ذلك من الإغواء والإغراء . . .

ثم أرسلوا هذه الكتائب الفاجرة الداعرة وقد اكتملت زينتها ، وطاب عناقها ، إلى جيش صلاح الدين ، الذي يفور جنوده الشبان حماسةً والتهاباً ، وفي ظنهم أن هؤلاء الجنود سيدعون القتال والجهاد ، ويقبلون على هذه الغادات الحسناوات يطفئون بهن جذوة شبابهم المتوقد ، وهل يصبر الصخر الجلمد أو الحجر الصلد على إغرائهن وفتنتهن ؟!

وأقبلت الشابات الفاتنات وبأيديهن الزهور والرياحين يحملنها رسائل شوق وعربون غرام ، ونظر القائد المسلم إلى هذه الحرب التي لا قبل له بها ، فأعداؤه الأذكياء قد رَموه بما هو أشد عليه من الأسِنَّة السُّمر والبيض الذكور ، رَموه بما يفتن الصخر الأشم ، ويصبي العجوز الهمَّ ، فأدار فكره فيما عسى أن يرد به هذه الغارة الشيطانية فلم يجد إلا أن يرد هذه الحرب بحرب أشد منها قوة وبأساً ، والحديد لا يفلُّه إلا المبرد والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] .

فأجال عين بصيرته في كتاب الله تعالى فوقعت على هذه الآية وكأنما أُنزلت في هذه اللحظة لهذا الغرض وهي قوله تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

فتلاها على مسامع الجنود بأعلى صوته واستحضر عظمة الله تعالى ، وتفاهة هذه القاذورات المسماة بالشهوات ، فلم يخرج كلامه من فمه كلاماً

مزوَّقاً ، بل خرج روحاً إيمانية ملائكية هادية مفعمة بالنور مضمَّخة بالطيب ففعلت في نفوس الجنود الشبان فعل الحق في النفوس يصهرها فينفي باطلها وزخرفها ويحرق خاماتها وفلزَّاتها فينتشر الزيف منها كما ينفي الكير خبث الحديد ، وأبطلت هذه الآية سحر الباطل وزيف الرذيلة فظهرت على حقيقتها تقول للناس إني أنا الرذيلة بعينيها وأنفها وأذنها فمن لم يعرفني فليعرف أني أنا خلاصة جهود إبليس على الأرض . . .

وقذف القائد هذا الصاروخ الرباني من فمه على ذلك الباطل فأذابه كما قال تعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

فإذا بالجنود يُطرقون رؤوسهم ويغمضون عيونهم وكأن الغادات الحسناوات اللاتي جئن يطلبن عناقهم ووصالهم ، لسن في حقيقة أمرهن إلا الرذيلة بذاتها جاءت تقول للناس : إني أنا الرذيلة ، إني أنا الحمأة النجسة ، أنا الخطيئة فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . .

وأقبلت هذه النسوة نحو الجنود ، وقد منَّيْن أنفسهن منهم بالأماني الكاذبات ووعدن الشيطان وهنَّ جنوده وعساكره بأن يهزمن الفضيلة والطهر والعفاف أيَّما هزيمة نكراء ، وقذفن بأنفسهم في أحضان هؤلاء الجنود وفي ظنهن أنه لن تمضي دقائق معدودات حتى يختلي كل حبيب بحبيبته وتشهد الأرض والسماء غلبة إبليس وجنوده على الحق وجنوده . . .

ولكن النسوة وجدنَ من الجنود ما لم يكن بحسبانهنَّ ، فأقبلت كل واحدة منهن على جندي وطفقت تقبله وتعانقه وهو لا يزيد إلا بعداً واشمئزازاً وقد أطرق رأسه في الأرض وأغمض عينيه حتى لم يعد أحدهم يبصر من أمامه ، أليس الله تعالى يقول : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ؟! [النور : ٢٠] .

فخُذِلت هذه الغادات والحسناوات ، وانهزمن كل واحدة منهن لا تلوي على شيء حتى رجعن إلى رؤسائهن ، وأقبلوا يسألونهن : مَنْ الذي قبَّلكم

ومن الذي عانقكم ؟! وكم عدد من فتنتم من جنود صلاح الدين وقد هيَّؤوا المكافآت والجوائز . . . فقالت النسوة كلهن بصوت واحد :

قبحكم الله!! . . . بعثتمونا إلى جنود عُمي ؟!! والله ما رأينا آماق عيونهم . . . !

* * *

وبعد : فبهؤلاء الجنود فتح صلاح الدين بيت المقدس وانتزعه من أيدي الصليبيين المستعبدين المستثمرين ، وبهؤلاء الجنود الذين امتلأ كل واحد منهم إيماناً فلا يبالي في الدنيا بشيء مادام قد أرضى الحق عز وجل . . . وأرضى رسوله .

بمثل هؤلاء الجنود يا بني قومي يُفتح بيت المقدس مرة أخرى لا بغيرهم وقد صدق الله تعالى حيث يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

* * *